

سلطان الأبناء على الأباء



بقلم الشيخ عماد مجوت

يأخذ جانب العاطفة حيزا كبيرا من الإنسان في صياغة المواقف الصغيرة منها والكبيرة، بل حتى المصيرية منها .

وكما يشكل هذا الجانب دافعا إيجابيا في بعض الأحيان، يكون سلبيا في أحيان أخرى.

وواحدة من أهم المحركات العاطفية تتمثل في علاقة الأبناء مع الأباء، إذ تشكل حالة صاعقة في صياغة المواقف، متأتية من منزلة الأبناء في القلوب التي وصفها أمير المؤمنين عليه السلام في كلمة تصويره لهذه العلاقة بقوله: " وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي ، حتّى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني ، وحتّى كأنّ الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ما يعينني عن أمر نفسي " . (نهج البلاغة/ من كتاب إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام) . فهو يعبر عن الحالة العاطفية العميقة التي تربط الأب بأبنائه ، وبالتالي هي داخلة على مسألة التأثير النفسي سلباً و إيجاباً .

ومن هنا نبه القرآن الكريم على خطورة عدم برمجة هذه العلاقة التي قد تصل بالإنسان إلى حد لا يمكن الرجوع معه، كما في قوله تعالى: [إِنْ زَمَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَفِتْنَةَ وَاللَّهِ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [التغابن: ١٥-١٦] . فهم محل ابتلاء واختبار للإنسان، ومن هنا دعي الى تقوى الله تعالى.

وقد تكون في بعض صورها مانعا من ذكر الله تعالى، كما في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] [المنافقون: ٩] .

بل قد يصل الأمر بتأثير هذه العلاقة إلى حد ما ينزله العدو بعدوه، كما في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوِّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ رَّحِيمٌ] [التغابن: ١٤] . وهو واضح في التأثير النفسي الذي يخرج الإنسان حتى مع علو مقامه عن موقعه الإجتماعي والديني إلى الجهة المقابلة ، كما في وصف أمير المؤمنين عليه السلام الزبير بتأثير ولده عليه ، بقوله: " مَا زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى زَشَّأَ ابْنُهُ الْمَشْهُومُ عَبْدُ اللَّهِ " . (نهج البلاغة/ الحكمة: ٤٥٠) .

فأنظر إلى تأثير عاطفة الأبناء على الأباء حيث أخرج من منزلة كونه من أهل البيت عليهم السلام إلى عداوتهم .

وهو ما يحتاج إلى ترتيب هذه العلاقة من جهة، والتحكم بالعاطفة من جهة أخرى.

أما ترتيب هذه العلاقة فيتحصل من خلال ملاحظة أن تنزيل الأبناء منزلة النفس لا يمنع من كون المواقف في مواضعها المناسبة التي تكون حيث يكون الحق وما ينبغي من الهداية، الأمر الذي يترتب عليه عدم التأثير بمواقف الأبناء فيما إذا خالفت الحق، كما في قوله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فالإيمان المكتوب في القلب هو وليد عدم مادة من يعادي الله تعالى، ولو كان أبنا، وهي معادلة صعبة جدا، حيث يصل إلى ما وصل إليه عبد الله بن الزبير، ويقول تعالى : ﴿وَأُمَّمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]. فإن تأثيره واضح، كما بينه تعالى، حتى وصل إلى حد قتله قضاء منه تعالى حفاظا على إيمانهما.

أما التحكم بالعاطفة، فيبدأ من خلال إشباع النفس بأن هذه العلاقة تقتضيها طبيعة الحياة الدنيا، ولكل أمرء عمله الذي يجزى عليه: ﴿فَإِذَا زُفِّخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣]. وأن أبناءه مهما كانوا لا يغنون عنه عن الحق والهداية شيئا: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [المتحنة: ٣].

وأن هذه العاطفة تجاهم جعلها الله تعالى لأجل ديمومة الحياة، وأنه مكلف بأن يهيه لهم سبيل البقاء والتقويم، لا المالكية لهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

وأن هذه العاطفة في واقعها مجهولة المسافة بين من هو أقرب في واقعه للنفع: ﴿بَاؤُكُمْ وَاَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْسُهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

ومع جميع ذلك ينبغي للعاقل جعل هذه العلاقة مسخرة في طريق الله تعالى، وما أعظم أن تكون العاطفة تجاه الأبناء المنزلة منزلة النفس مسخرة في سبيل الله تعالى، فكما يوجد بنفسه في سبيل

الله تعالى يوجد بهم كذلك ، فهم زينة للحياة، وطريق الآخرة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أُمَّةً﴾ [الكهف: ٤٦] .